رحيل الفنان اللبناني الذي ارتقى الي العالمية . صليبا الدويهي يسكن مسطحات الضوء وشرقه الرحب امتد الى نيويورك

فُجعت الاوساط الفنية اللبنانية والعربية قبل أيام، برحيل صليبا الدويهي، أحد أبرز فناني جيله وأخصبهم وأشهرهم على المستوى العالمي. مسيرة الدويهي حافلة بالمحطات، مزروعة بالمنعطفات الحاسمة. من محترف حبيب سرور في الثلاثينات، الى صدمة المنفى النيويوركي في الخمسينات واكتشاف الفن الحديث... ومن التصويرية الصرفة الى أرقى مراحل التجريد وأشفها، تقلب ابن الجبل اللبناني بحثاً عن الجوهر، وتخلّى عن الابعاد الثلاثة ساعياً عبر مسطحاته المستكينة المتلاصقة، الى اختزال مشاهد الطبيعة، وتكثيف روح الشرق في قالب ينتمي الى روح الحداثة.

في مثل هذه الايام من العام الماضي، كانت العاصمة الفرنسية تضج بحدث ثقافي بارز، هو المعرض الاستعادي الشامل لأعمال صليبا الدويهي: 30 لوحة استضافها "معهد العالم العربي"، تغطي أبرز مراحل حياته، وتتراوح تواريخ انجازها بين 1938 و1987.

يومها عاد الجمهور من جديد لاكتشاف هذا الرائد الذي يعتبر بين أكبر التشكيليين العرب، وأكثرهم شهرة على الساحة العالمية. وترك الدويهي لدى أغلب الذين التقوه ذلك الحين من الفنانين والاصدقاء القدامى وهواة الفن، ولدى الكثير من النقاد والصحافيين، انطباعاً بطمأنينة داخلية لا تعكر صفوها مرارة السعي الطويل... كأن صاحب القامة الشامخة المكللة بشيب الثمانين، كان يتذوق ذاك التكريم الباريسي كمن يأخذ من الكأس رشفة أخيرة، أو كمن ينتظر بصفاء وهدوء أن "يأتي الطارق الغريب"...

وفي الثاني والعشرين من كانون الثاني يناير الماضي، انطفأ الدويهي في صمت منفاه الاميركي، عن عمر يناهز الثانية والثمانين، ليلتحق بزميليه بول غيراغوسيان ورشيد وهبي. فهؤلاء المؤسسين الذين طبعت تجاربهم الحركة التشكيلية، رحلوا خلال أسابيع قليلة، تاركين الحداد يلف ثقافة لبنانية باحثة عن ملامحها، فيما هي تفقد رموز نهضتها الواحد تلو الآخر.

مسيرة متعرجة

لكن مسيرة الدويهي تبدو أكثر تعرجاً اذا قيست بنتاج وهبي الذي عرفت لوحاته تطوراً أفقياً يطغى عليه الاستقرار. ولعل هذه المسيرة، لم تعرف كذلك الصيرورة نفسها التي تحكمت بتجربة غيراغوسيان، اذ أن لوحة هذا الاخير توالدت من ذاتها حتى التطهر والتماهي مع مادتها. وفي حين لم يتخلّ رشيد وهبي عن واقعيته الاولى رغم مرور السنوات، ولا أفلت بول غيراغوسيان من اطار تعبيريته، قفز صليبا الدويهي خلال نصف قرن من الزمن بين المدارس والاتجاهات، متحولاً من التصويرية الصرفة الى أرقى مراحل التجريد وأشفها... حاملاً معه، عبر هذه الرحلة اللاهثة، الهواجس عينها، مراجعه الجمالية وموضوعاته التي أخذت مع العمر تنحو الى مزيد من النقاوة والمينيمالية والاختزال.

في البدء كانت وجوه "بدوياته" اللواتي رسمهن متأثراً بأستاذه حبيب سرور مثل رشيد وهبي، انطلق صليبا مطلع الثلاثينات من محترفه. ثم جاءت المشاهد الانطباعية التي استوحاها طويلاً من الطبيعة الجبلية في شمال لبنان. فقد أبصر النور عام 1912 في إهدن، وترعرع على أكتاف وادي قاديشا حيث تربت عينه وتشبعت بالضوء الذي تنضح به المناظر والالوان. واذا بالدويهي يتنقل بخفة وحبور من الكلاسيكية الى الانطباعية فالتكعيبية، مروراً بتأثيرات الفنون الشرقية والبيزنطية، وصولاً الى التركيب الهندسي الصارم.

ومن اللوحات التي استلهم معها الفنان الخط العربي والخطوط السريانية والمسمارية، الى تلك الاشكال الهندسية

العريضة المسطحة، بألوانها الحارة، الباهرة والمبتكرة طبعت مناخات لوحاته التجريدية التي اشتهر بها في السنوات الاخيرة... نقرأ فصول هذه التجربة الغنية التي أمضاها متنقلاً بين باريس وبيروت ولندن وروما ونيويورك.

بعد إقامة باريسية درس خلالها في "مدرسة الفنون الجميلة" 1932 - 1936، وأمضاها متنقلاً بين اللوفر والمتاحف الاخرى - وكان شغوفاً بتيسيان ودو لاكروا - وشارك في "صالون الفنانين الفرنسيين" 1934، عاد الدويهي الى لبنان، منصرفاً حتى العام 1940 الى رسم وتزيين سقف وجدران احدى الكنائس العريقة في أعالي الشمال الديمان. وعلى الرغم من هجرته لاحقاً الى الولايات المتحدة، حيث شق طريقه عند مفترق الطرق بين تأثرات ومراجع جمالية شتى، فقد عاد عام 1956 الى بلاده لتنفيذ جداريات وزجاجيات كاتدرائية بلدته زغرتا.

ونستطيع أن نتبين ثلاث مراحل كبرى في تجربة صليبا الدويهي، لكنها مترابطة وشديدة الاتصال في ما بينها خلافاً لما يبدو في الظاهر، وهي مقترنة بأمكنة مختلفة وتتخللها أسئلة كثيرة وفترات انقطاع عن الرسم. المرحلة الاولى تتسم بالانطباعية، بدأت إثر تخرجه من باريس، وعودته الى بيروت بعد اقامة قصيرة في روما. "كنا معجبين في تلك الفترة بالفن الاوروبي - قال الراحل لـ "الوسط" ذات يوم من شتاء 1993 - ومتمسكين بالقواعد الفنية الغربية. لم نكن ندرك تماماً أهمية تراثنا الفني، ولا نعرف قيمة ما أنجزه العرب والمسلمون القدامى...". أخذ اسم صليبا الدويهي ينتشر ويروج في الوسط الثقافي والفني في بيروت، حتى أصبح خلال عقد من الزمن رساماً معروفاً.

وفي العام 1945، أقام معرضاً كبيراً في فندق "سان جورج"، افتتحه رئيس الجمهورية الحديثة العهد بشارة الخوري. أما اللوحات التي احتواها المعرض، فبيعت كلها، لكن الفنان لم يستسلم لاغراء الشهرة: "كنت أصبحت مشهوراً في لبنان، ورحت أرسم بأسلوب واحد، وبشيء من الرتابة. لذا قررت أن أهجر كل شيء كي أبدأ من جديد".

الفلسفة وعلم الجمال في نيويورك

هكذا استقر الدويهي في نيويورك عام 1950، وراح يدرس الفلاسفة الذين كتبوا عن الفن: كانط، سبينوزا وأرسطو، متعمقاً أيضاً في علم الجمال: "هكذا تخليت عن الرسم حوالي سنة ونصف السنة. في البداية وجدت صعوبة كبرى في نيويورك، فانطويت على نفسي. اذ اكتشفت هناك، بعد أن اطلعت على الحركة الفنية الاميركية والعالمية، أنني متخلف جداً في الرسم. فمن جهة لم أنس لحظة أنني فنان قادم من الشرق، ومن الجهة الاخرى كان لا بد للوحتي أن تكون "حديثة"".

مع هذه المرحلة الثانية، كان صليبا الدويهي بدأ يقترب من التجريد. فأغلب اللوحات التي أنجزها خلال سنواته الاولى في نيويورك، مستوحى من الخط العربي والخط السرياني. فالحرف يبدو هنا مكوناً أساسياً في البنية التشكيلية، لا زخرفاً خارجياً دخيلاً. راح الفنان يجرد الحرف من دلالته ومن صورته، بل وحتى من مخزونه الروحي، ليقبض على ما هو جوهري فيه، أي على امكاناته الهائلة للتشكل. عن تلك المرحلة قال لـ "الوسط": "تركت الابعاد الثلاثة، ورحت أصور مثلما كان يصور على الفطرة، الفنانون العرب القدامى الذين لم يعتنوا بالطبيعة، واكتشفوا أشياء كثيرة بوعيهم الخاص. الفن العربي، خلافاً للفن الاغريقي أو البيزنطي، قائم على التخيل. وهذا التخيل أوجد "الارابيسك" والزخارف التي تعد اليوم معيناً للعالم كله. الخط العربي له بعد واحد وهو سيكولوجي، في لوحتي تحوّل تكويناً وتجريداً على النسق العربي الاسلامي".

المشاهد الاولى غربلتها الذاكرة

أما المرحلة الثالثة في مسيرة الدويهي، وتغطي السنوات الاخيرة حتى توقفه عن الرسم، فشهدت انصهاراً لكل الاساليب

التي اختبرها خلال سنوات طويلة. ولعلها أغنى المراحل وأكثرها أصالة في آن. لا يستطيع المرء أن يبقى محايداً أمام هذه الاعمال التجريدية الضخمة، بأشكالها التي تبدو متناغمة على الرغم من الاختلاف الشديد بين أحجامها، بضوئها المشع وبألوانها الحارة الباهرة التي تحمل في طياتها وهج الصحراء. إنه الشرق الرحب، وعبثاً نحاول أن نبحث عن شيء آخر في هذه المسطحات المستكينة المتلاصقة. إنها المشاهد الاولى في لبنان، وقد غربلتها الذاكرة.

"لو تمهلت عند لوحاتي القديمة، لوجدت المشاهد الطبيعية الاولى التي رسمتها في لبنان موجودة في هذه المسطحات المجردة. كل ما فعلته هو أنني جردتها من كل الزوائد، وألغيت منها الابعاد الثلاثة، والعناصر المنظورة، لتكون مثل الخط العربي بلا أبعاد...". هكذا ظل الدويهي - على الرغم من التحولات العميقة التي عاشها - وفياً لعالمه الفني الذي تشكلت ملامحه في "المشاهد الطبيعية"، عالم الشرق بفضائه اللانهائي، بضوئه الباهر السخي وألوانه الحارة. هذا العالم حاضر في أغلب لوحاته. كل ما قام به الفنان خلال رحلته الطويلة، أنه شذّب وصفّى ونخل. وكان كلما توغل به السؤال وأعياه البحث، أصبح أكثر جرأة على التعرّي الميتافيزيقي للابقاء على الجوهر.

اهمال اعلامي عربي؟

في الفترة الاخيرة كان صليبا الدويهي يشكو من قلة الاهتمام الاعلامي به، في الوقت الذي ظهرت في بيروت محاولات لتزوير لوحات ونسبها اليه لرفع قيمتها المادية. لكن اسمه وارد في قواميس فنية عالمية وحتى في كتاب الـ "هوز هو" في الولايات المتحدة! وهو حائز جوائز أوسمة عدة، منها: وسام الارز الوطني اللبناني 1965، جائزة أكاديمية فيلادلفيا للفنون الجميلة 1968 والميدالية الذهبية لأكاديمية ايطاليا للفن والعمل 1980...

والفنان الراحل شارك في معارض عالمية لا تحصى، وقدمت أعماله غاليريهات كبرى من بيروت الى باريس، ومن روما الى مكسيكو، ومن كالكوتا الى مدن أميركية عدّة. ولوحاته المتحدرة من تراث فني عريق، والتي تعكس أسئلة وهواجس فلسفية وجمالية، دخلت مجموعات بارزة ومتاحف كبرى. فهي معروضة في "متحف الفن الحديث" في نيويورك، وهو أكبر متاحف الولايات المتحدة، وفي متاحف فلوريدا وألاباما وماساشوسيتس وميتشيغان وأوهايو...

اليوم يعود صليبا دويهي الى زغرتا، ليسكن نهائياً أحد مسطحاته الترابية المجردة. يعود الى نبع الضوء ومصدر الالهام، ليتصالح مع هذا الجرح السري الذي حمله معه في تسكعه عبر العالم، فيتحد بألوانه مرّة أخيرة...